

الكتابة والكتب ودورها^(١)

افرايم المصريين الاقدمين وقد تركوا لنا كتبهم منقوشة على صفحات الجبال وفي بطون المغارات وعلى اعمار البرابي والاهرام والمسلات ؟

ام هل انا كم حديث الاشوريين ؟ فقد اكتشف النقابون في هذه الايام مصاحفهم مرقومة على اللبن ، وهو الطوب المشوي او المطبوخ . وذلك لان ارض ما بين النهرين مكونة من طيني دجلة والفرات فليس فيها جبل ولا حجر . ولكن ذلك لم يقف حجر عثرة في سبيل الغرام بالكتب . فصاروا يرقون بالمسار على الطين وهو نقي ثم يطبخونه في النار ، استبقاء لكتبهم على ممر الادهار والاعصار

ثم انتشر هذا الغرام في مصر وعم وطم ، فاحتاج القوم لزيادة الكتابة ، واحسوا بما في النقش على الاجمار من الصعوبة ، فعادوا الى الطبيعة ، وهي الهادي الاكبر للبشر ، اخذوا البردي وعالجوه بما جعله صالحا للكتابة ، وهامى آثاره في دار العاديات المصرية بقصر النيل في القاهرة ، واكثرها في متاحف اوربا ، واما الصين والهند ، فقد كفتهم دودة القز هذه المؤونة ، في القيام بما يدعونه اليه الولوع بالكتب والكتابة ، واذا نظرت الى بني الاصفر واعني بهم اليونان والرومان تجدهم قد استعانوا بالحيوان ، فعالجوا الجلود وصنعوا منها مانسعية بالرقوق

واول من استبط ذلك الاغارقة من اهل فرغامة ، وهي مدينة بآسيا الصغرى تسمى عندهم برجامة Pergame فصار اسمها علما على هذا المصنوع من الرقوق ، ولا يزال باقيا عند جميع الافرنج الى الآن ، فان اهل ايطاليا يسمون الرق (بفتح الراء) برجامينو Pergamino اي الفرغامي لان العرب نقلت اليه الفارسية الى الفاء لقرب المخرج كما قالوا في Platon افلاطون وهكذا . واما الاسم العربي فهو مأخوذ من ترقيق الجلد بعد دبغه .

اما العرب فبلادهم جرداء قحلاء فلم ينقشوا على الاجمار ، ولم يطبخوا الطين على النار ، ولم يهتدوا الى صناعة الترقيق . ولكن ذلك لم يكن حائلا دون غرامهم بالكتابة والكتب . فكانوا قبل الاسلام في عصر النبوة يكتبون على عسيب النخل اي تحوف

(١) من محاضرة لاحمد بك زكي احد الباحثين العالمين في مصر القاها في نادى مؤلفي الحكومة في الاسكندرية في شهر رمضان الماضي

الجريد لكثرة هذه الشجرة المباركة في بلادهم . ويكتبون على الواح العظام (وكثرتها ناشئة عن ذبح الاضاحي) ويكتبون على نوع من الاججار المصقولة التي يلتقطونها من فيافيهم وبواديهم .

وتقف بالكلام على العرب دون سواهم من الامم الاخرى . فانهم ما لبثوا في خلافة الصديق ومن جاء بعده من الخلفاء ، ان انتشروا في الارض فاخذوا على اهلها اساليب الحضارة . ثم احتاجوا الى التبسط في الكتابة ، لانواع الملك واستبحار المعمرات فكتبوا في العراق على الحرير وسموه بالمهراق . وكتبوا في مصر على البردي ولا تزال آثاره باقية في اوربا وبعضها في القاهرة في دار الكتب الخديوية . وكانوا يكتبون على هذا البردي باللغة العربية وحدها تارة ، ومصحوبة بالترجمة الرومية او القبطية تارة اخرى . ولا تزال هذه سنة مطردة في ديارنا ، اعني بها سنة الاحتياج الى لغتين مثال ذلك : الاجار واوراق البردي في عهد اليونان ، نواها مكتوبة بلغتهم . وباللسان المصري القديم ، وبسنة عهد الرومان - لـ اللسان اللاطيني محل اليوناني . حتى جاء العرب فكان من شأنهم ما ذكرنا . ثم انقضت مدة طويلة من ايام المأمون الى آخر الدولة الابوية استقل فيها اللسان العربي . حتى جاءت دولتا الممالك البحرية والجركية فاندجحت في اللغة العربية بعض الفاظ واصطلاحات دخيلة من التركية . ثم جاءت دولة العثمانيين فكانت السيادة في مصر للمالك الانراك حينئذ طامح البحر اللغة التركية وصارت تزام لغة البلاد . واستمر الحال على ذلك بعد جلوس الفرد الفذ العظيم « محمد علي » نابغة العصر الجديد الى ايام سعيد وبعد ذلك بدأت الفرنسية تغل قليلا قليلا محل التركية . وهاهي الآن تناخر في الميدان امام اللغة الانكليزية . والحق يقال ان لغة البلاد اخذت في الانعاش كثيرا بفضل خديويتنا المحبوب عباس الثاني وبفضل حكومته الرشيدة السعيدة . وبفضل الحاكم والجرائد وسترون عما قليل حسنة جليلة من اكبر محاسن الحكومة الحاضرة يرتفع بها منار هذا اللسان وتجدد معها آداب العرب وعلومهم .

نرجع الى الكتابة والكتب فنقول ان العرب ما عتصموا ان يستخدموا الجلود بعد ترقيةها وكان من مزايها عندئذ انهم كانوا يغسلونها ويجددون الكتابة عليها . فأروا ان ذلك ان كان صالحا في بعض المعاملات الوقتية ففيه ضرر كبير على العلم كما رأوا ومن جهة اخرى ان الحرير يدعو الى مؤونة كبيرة مع ان الحاجة ماسة الى الاكثار منه . ومن الرق بل رأوا في ايام هارون الرشيد انهم كانوا مقلدين لغيرهم من الامم وان ما وصلوا

اليه من الحضارة والرجحان يوجب عليهم الاخذ باسباب الاختراع والاستنباط . فكانوا اواسـ من اصطنع الورق على هذا الشكل الباقي الى ايامنا هذه وسببهم ذلك نخاراً . وقد سموه بالكاغد^(١) ثم بالقرطاس ثم شاع اسم الورق وانتشرت معامل الورق من الخرقة اي من الكهنة في سمرقند وبغداد والقاهرة ودمياط ثم انتقل الى بلاد الغرب فكان لهذه الصناعة شأن كبير في بلاد الاندلس واشتهرت مدينة شاطبة بمعاملها ومصنوعاتها التي فاقت في الجودة والاحسان والاتقان وارت على ما بلغه اهل المشرق من هذا الباب ومن شاطبة كان الكاغد يحمل الى سائر بلاد الاندلس . ومن هناك انتقل الى افرنجية (فرنسا) ثم الى بقية ديار اوربا وقد ابغاه القوم في هذه الايام الى نهايات ما يخطر بالاحلام واتوا في ذلك بالمعجب العجيب حتى صاروا يصنعونه من الاخشاب وانعدمت هذه الصناعة من ديار الشرق كلها انصار عالة على غيره فيها وفي غيرها حينئذ توفرت عند العرب الاسباب المادية والعقلية فابعدوا في التصنيف واغربوا في التأليف وتهاوتوا على جمع الكتب وتطلب ما يتوي في ذلك السلطان والسوقة والخاصة والعامة والرجال والنساء . وجميع الطبقات حتى كثرت دور الكتب في القاهرة وامهات

(١) اما الكاغد فهو لفظ فارسي وقد كان لهذه اللغة الفارسية تأثير يذكر في العربية ايام العباسيين لان الفرس هم الذين رفعوا قواعدھا وشادوا دعائمھا وكان رجالهم هم المدبرون لامرھا في اول قيامها ثم في ايام الخليفة السابع وهو المأمون بن هرون . وفي ايامه اخذوا ايضاً عن الروم علومهم ومعارفهم فقلوا لفظة *Carta* اليونانية وعربوها وهي بصيغة الجمع فقالوا قرطاس والغريب في هذا الموضوع ان ائمة اللغة نصوا على ان القرطاس يقال بضم القاف او بكسرها واجمعوا على ان الفتح لم يقل به احد . وهو امر غريب فان الفتح اقرب على اللسان واقرّب الى الاصل . وهذه اللفظة عربيها المصريون في ايام محمد علي في ضمن الاصطلاحات الجغرافية فقالوا خرطة مما كاة للتلفظ على الطريقة اليونانية للدلالة على المصورات الجغرافية التي يسميها ابن فضل الله العمري في مسالك الابصار بلوح الرسم والتي ورد اسمها في بعض نسخ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الادريسي هكذا (لوح الترسيم) وانا اظن كثيراً ان هذه اللفظة من تحريف الترساخ او المساخ وان صحتها لوح الرسم كما رأيت في موسوعات ابن فضل التي ذكرتها لكم . ثم ان المتقربين في اللغة حرفوا لفظة خرطة فقالوا خريطة وخرائط وما دروا ان ذلك الاسم موضوع لجمعية الراعي ولكن قد كان ما كان

المدائن المصرية بدرجة لاتتصورها الآن لان بلادنا اصبحت خلوا منها بالمرّة لولا تلك الصيانة القليلة الباقية في دار الكتب الخديوية وفي الازهر الشريف تتلوها المكتبة الحديثة التي انشأتها البلدية في الاسكندرية . اما البيوتات فقد اصبحت عددها اقل من اصابع اليد الواحدة واولها بيت السادات يتلوه بيت البكري في بيت المرحوم رفاعة وعبد الله فكري . واما الافراد فقد فابت النظر فلم ار غير المرحوم لطيف باشا سليم وبعده الفاضل احمد بك تيمور

وقد اردت ان اجري على هذا السؤال وان كانت خطواقي صغيرة وبدي قصيرة ولكنني خشيت ان تذهب مجموعتي من بعدي للعطار والزيات والبقال او تتفرق شذر مذر كما حصل للمجموعة النفيسة التي كانت تزدان بها دار المرحوم علي مبارك باشا في حياته . لذلك جعلتها من الآن خاصة بالامة ولا ازال دائبا الى آخر ساعة من حياتي على توسيع نطاقها والزيادة فيها

اذا رجعنا ليصرنا الى التاريخ رأينا يحدثننا عن دور الكتب في القاهرة فتأخذنا لوعة لمجرد هذا الوصف ونبكي على ذهاب العين والاثار

فدور الكتب التي اسماها الفواطم يحدثننا المقريري عنها بما يثير الاشجان ويستعطر المسمع من الآفاق . فقد كان في قصر الخلافة وحده اربعون خزانة كانت فيها التوادر والنفائز فاخذ معظمها بعض الموظفين وبعض الاجناد الاتراك بدل مرتباتهم في ايام الشدة التي وقعت للخليفة المستنصر

وقد نهبت عرب لواتة شيئا كثيرا منها اغرب المقريري في وصفه ثم قال : ان عبيدهم واماهم اخذوا جلودها برسم عمل ما يلبسونه في ارجلهم واحرقوا ورقها تأولا منهم انها خرجت من قصر السلطان اعز الله نصراره وان فيها كلام المشاركة الذي يخالف مذهبهم سوى ما غرق وتلف وحمل الى سائر الاقطار وبقي منها ما لم يحرق وسفت عليه الرياح التراب فصار تلالا باقية الى اليوم بمثابة آثار تعرف بتلال الكتب

هذا عدا خزائن القصر الداخلة التي لا يتوصل اليها احد وعدا خزائن دار العلم بالقاهرة « وهي مماثلة لما نسيه الآن اكاديميا او كما يقول صاحب كشف الظنون وابن ابي اصيبعة قبله : (افاذيتيا) » وسوى خزانة المارستان العتيق وقد بقيت الى ان يبعث في ايلم صلاح الدين فاشترى القاضي الفاضل وحده منها مائة الف كتاب مجلد وادعها في المدرسة التي انشأها بالقاهرة . وفضل القاضي الفاضل ومكانته في الدولة الاربوية

يدلان على انه اختار افضل الكتب واحسنها ولكنها ذهبت بها الايام ايضاً فان الغلاء لما وقع بارض مصر في سنة ٦٩٤ صار طلبة هذه المدرسة يبيعون كل مجلد برغيف من الخبز . وبقيت منها بقية تدولتها ايدى الفقهاء بالعارية ففترقت وكان فيها مصحف اشتراه القاضي الفاضل بنيف وثلاثين الف دينار على انه مصحف الخليفة عثمان وكان في خزانه مفردة له غربي الحراب . وهذا القاضي الفاضل كان يفتني الكتب من كل فن ويحتملها من كل جهة وله نسخ لا يفترون ومجلدون لا يطلون . وقد بلغ مجموع كتبه قبل موته بعشرين سنة ١٢٤٠٠٠ مجلد طلب ابنه مرة ان يقرأ ديوان الحماسة وتوسل الى ذلك ببعض المقرئين لديه فامر الثاني الفاضل فاحضر له خازنه ٣٥ نسخة فصار ينفذها واحدة واحدة ويقول هذا بخط فلان وهذه بخط فلان حتى اتى على الجميع ثم قال: ليس عندي ما يصلح للصبيان وامر بشراء نسخة بدينار لولده وقد احضرت مجموعة رسائله في جملة ما احضرت من الكتب

وقد بقي بعض الكتب من آثار الفاطميين في مصر وزاد عليها المماليك وجعلوا لها خزانه عمومية ولكنها احترقت في سنة ٦٩١ فتلقت بها من الكتب في الفقه والحديث والتاريخ وعامة العلوم شي كثير جداً كان من ذخائر الملوك . والذي نجا من النار انتهبه الغلمان وباعوه بالبخس الاثمان فظفر الناس منها بصحائف محروقة فيها نفائس غريبة

ولم تكن هذه المدرسة هي الوحيدة في القاهرة فقد كانت خزائن الكتب في المساجد والجوامع والمدارس فضلاً عن القصور والمنازل . وحسبي الاشارة الى بعض المدارس التي امتازت بجمع الكتب النادرة فمنها المدرسة التي انشأها بمصر القديمة في سنة ٦٥٤ الوزير الصاحب بهاء الدين علي بن محمد بن سليم بن حنا (بكسر الحاء المهمل) وتشديد النون المفتوحة كما ضبط الثقات من المؤرخين) فقد كانت فيها خزانه جليلة من الكتب النادرة ثم نقلها بقيت عنده حتى مات ففترقت في ايدى الناس وكذلك الملك الظاهر بيبرس البندقداري جعل في مدرسته الظاهرية خزانه كتب تشتمل على امهات الكتب في عامة العلوم

فلا تولى السلطان قلاوون جعل في قبته البدعة خزانه الكتب في جميع انواع العلوم ولكن معظمها تفرق في ايدى الناس واقتدى به ابنه محمد فانشأ خزانه كتب بمدرسته التي شادها بجوار هذه القبة في الجهة المعروفة الآن بالنحاسين

وأما أسماء الأمراء والأفراد فهي كثيرة جداً مثل الأمير متوكل سيف الدين الحسامي والحاج سيف الدين آل ملك والأمير سيف الدين الجاي والطواشي سابق الدين مثقال والطواشي سعد الدين بشير الحمدار . وأهم الكل الأمير جمال الدين محمود الاستادار

ولا انتقل من هذا الموضوع قبل أن أذكر لكم أن نساء مصر كان لهن مشاركة في هذه المأثرة وحصة كبيرة في الغرام بالكتب واكتفي الآن باسم الست عاشوراء بنت ساروج الاسدي وكانت عاتشة في أيام صلاح الدين والست الجليلة الكبرى عصمة الدين مؤمنة خاتون بنت الملك العادل الأيوبي وكانت من فضليات أهل العلم واشتهرت بالبراعة في الفصاحة وفنون الأدب والسيدة الجليلة الكبرى خوندتتر الحجازية بنت السلطان الناصر محمد بن قلاوون والست بركة أم السلطان الملك الأشرف شعبان والست ايديكين زوجة الأمير سيف الدين بكجا الناصري

وقد بدد الزمن آثار تلك السيدات الكريمات فلم أفت على كتاب من تلك الخزانة الكثيرة وغاية الأمر أن في دار الكتب الأهلية بباريس تحت غمرة ٢٧٥١ كتاباً في علم تعبير الرؤيا وهو مرتب على حروف الهجاء بشكل معجم ومكتوب في سنة ٨٣٣ هجرية برسم خزانة أميرة من أميرات مصر (أحدى البرنسات) وهي بنت السلطان الملك الظاهر جقمق

كان هذا الغرام عاماً في مصر وفي جميع بلاد الشرق . وخصوصاً في الممالك الخاضعة لصولجان صاحب التاج في القاهرة . التي كانت عاصمة للإمبراطورية المصرية . والشواهد كثيرة على هذا الولوع وحسبي أن أذكر لكم أمماً واحداً من باب التذليل . وهو أبو الفدا سلطان سماه وصاحب التاريخ المشهور بالمختصر في أخبار البشر وصاحب الجغرافيا المسماة بتقويم البلدان الذي طبع وترجم في باريس قد جمع في خزائنه من الكتب ما لا مزيد عليه وكان في خدمته ما يناهز مائتي معمم من الفقهاء والأدباء والنحاة والمجتمدين والفلاسفة والكتبة

ولو اردت أن استقصي ما عرفه عن الكتب وغرام المولعين بها أيام كانت الحضارة الإسلامية زاهية زاهرة لطال المقام ولم تكفي الأيام لتلوها الأيام وقبل الختام أذكر لكم قضية وقعت بمصر وهي من أغرب ما سطرته سجلات القضاء

وقفت على كتاب اسمه كنز الدرر وجامع العبر لابي بكر بن عبدالله بن اييك الدوادار وهو في تسعة اجزاء ثلثها بمكتبة ابا صوفيا والثلث الباقي بمكتبة طوب قيو بالقسطنطينية وهو في تاريخ مصر وفيه تفصيل غريب وبيان واف لانراه في التواريخ التي وقعت الينا . وليس هذا محل الشرح عن هذا السفر الجامع النافع . وقد كانت هذا الكتاب موقوفا على احدى المدارس بالقاهرة فاغتصبه بعض الاكابر واوقفه على مدرسته وفقاً صحيحاً شرعياً مرعياً فاقبعت عليه قضية بمجلس الحكم وحصلت المرافعة والمدافعة ثم اصدر النضاه حكمهم بطلان الوقف الثاني واعادة الكتاب الى مقره الاول باسم واقفه الاول . وقد قضت الايام بطلان هذين الوقفين وبانقسام الكتاب الى شطرين في خزانتي ولكن في غير مصر

ان العرب في اجتماع اهل الفضل والعلم في دور الكتب كانوا مقلدين لليونانيين في ائنة والرومانيين في رومية وكل منهما قد نهج على سنة اجدادنا المصريين اول من مدح الكتب على ما انبأنا به التاريخ الصحيح هو اول من اسس لها داراً خصوصية بديار مصر وجعل منفعتها عمومية

انا لا اجاري بعض الغلاة من العرب ومن ارى عليهم من المتوسمين الالمانيين الذين قالوا بوجود دور الكتب قبل حدوث الطوفان واخذوا بتصيدون الاقاويل من هنا ومن هناك ويقسمون الدلائل على غير طائل محتجين على ذلك بتعليم آدم الالهة وبالاعمة التي نقشها شيث وبالصحف التي نزلت على ادريس ويكفي ان نقنع بما هو وراء ذلك وهو قدم بل قدموس حتى لا نخوض بحور الخيال ونهيم في اودية الالهام . حسينا ان نرجع الى ما هو قبل اليوم بأكثر من ٣٢٠٠ سنة فهناك فصل الى التاريخ الثابت المنقوش على الاحجار وهو مما لا جدال فيه ولا مرأ . فذاك الاطلال المائلة الى الآن في صعيد مصر تنطق لنا بلسان هير وظيفي . بين وتقول ان اوسياندياس فرعون مصر الذي سماه اليونان سيزوستريس ورمسيس الثاني هو اول من اسس دار الكتب في مدينة طيبة بالصعيد وهو اول من مدح الكتب بعبارة وصلت الينا . وذلك انه نقش على باب تلك الدار كلمتين اثنتين جعلها رمزاً عليها وتلخيصاً لكل ما فيها رها

✽ شفاه الارواح ✽

ولعمري ان هاتين الكلمتين هما ابلغ من كل ما جادت به القرائع بعده في شرق البلاد وغربها وما هو مأثور عن عجم الام وعربها

وعن المصريين اقتبس اليونان علومهم ومعارفهم ونظاماتهم ولكنهم لما جاء الدور لهم لم يتيسر لهم انشاء مكتبة عمومية الا بعد الفرعون المصري بربوات من السنين لا تقل عن الخمسة القرون وذلك ان طاعية بيسترات هو اول من احدث بمدينة آثينس (أي اثينا) داراً من هذا القبيل لاستفادة الخاص والعام وكان ذلك قبل القرن السادس للميلاد وجمع فيها اشعار اوميروس بعد ان تلقفها من افواه الزواة كما كان شأن العرب من بعده باثني عشر قرناً في ايام بني امية وبني العباس . وما لبثت هذه الدور ان انتشرت بارض اليونان كما يشهد بذلك بيت قاله شاعرهم ارسطوفان

وفي يد كل انسان كتاب يلقنه افانين العلوم

وتولع اليونان بجمع الكتب والحث عليها لدرجة لاتكاد تكون مسموعة : دخل حاكم الى مدرسة النحويثينا فطلب من الاستاذ نسخة من ديوان اوميروس . فاعلمه المعلم بعدم وجودها فما كان من الحاكم في هذا الاهمال الا ان صفعه وخرج

ثم نهوس القوم بجمع الكتب من غير استفادة او افادة حتى رأى اديبهم لوسيان الشميشاطي ان يكتب رسالة باليفة في هجوم رجل جمع من الكتب طائفة وفيرة للجرد الاشتهار بانه جماع للكتب . قال ذلك الاديب مخاطب ذلك المذموم بما ترجمته

« في وسعك ان تعبر الكتب لغيرك فتكسب اجراً وفيراً ولكن ليس في طاقتك ان تستفيد منها فتتلا ولا قطعيراً . على انك ما اعرت منها احداً شيئاً مذكوراً فكان مثلك كالكلاب التي تنام في اسطبل الدواب فهي لاتقدر على اكل ما فيه من الشعير ولكنها تمنع منها الخيل وهي قديرة على الانتفاع باكله »

ولو تأخر هذا الاديب المجيد لخر ساجداً اذا سمع قول الكتاب المجيد « مثلهم كالخمار يحمل اسفاراً » فانظروا يارعاكم الله الى حسن الديباجة والى هاتيك الاجادة : واما قول لوسيان فما اشبهه بقول الجاحظ ولكن في ذم الحصيان ولا ازيد على هذا البيان بغير الاشارة عليكم بجماعة كتاب الحيوان واليكم مثلاً مما قاله العرب في ذم من يجمع الكتب وهو لا يدري بما فيها

زوامل الاخبار لاعلم عندهم بحجدها الا كعلم الاباعر

لعمرك ما يدري البعير اذا غدا باحماله او راح مافي الغرائر

فلما جاء دور الرومان انشأ الامبراطور يوليوس المنبوز بالمرتد وفي كتب العرب بالمرق

دار كتب في القسطنطينية واراد ان يقبشه بفرعون مصر ولكنه لم يبلغ شأوه فكتب على بابها هذه العبارة .

« لبعض الناس صباة بالخيال ولبعضهم ولع بالطير ولاخرين غرام بالوحش واما انا فقد تدللت منذ نعومة اظفاري بشراء الكتب واقتنائها »

ومما امتازت به مدينة القسطنطينية انها في ايام النصرانية حفظت في كنائسها علوم الاقدمين حتى جاء العرب فاستفادوا منها ونشروها من قبورها وكان لهم بهذه الوسيلة القدح الممل في ترقية الحضارة وبني الانسان وكذلك امتازت في ايام الاسلام بحفظ ما جادت به قرائع العرب الكرام في مساجدها وما علينا سوى اقتفاء اثرهم واتباع سنتهم . وقد فتحت لكم الباب وحسي ذلك فغراً

جاء العرب في ايام العباسيين فانتهم اليهم كلمة عن سقراط فكانت محرقة لعزائمهم وجعلتهم ائمة الامم وقادة الافكار

قيل لهذا الفيلسوف : اما تحشى على عينيك من ادامة النظر في الكتب فقال : اذا سلمت البصيرة لم احفل بسقام البصر

وفي هذا المقام لا يصح اغفال ذكر المأمون فهو اول من اسس دار كتب عامة في الاسلام وسماها بيت الحكمة كما انه اول من اسس مجمعا للعلوم (افاضيا) وسماه دار العلم . هذا فضلا عن خزائن كتبه الخصوصية التي يروي لنا عنها ابن النديم كل معجب ومطرب

كان بمدينة الاسكندرية حاكم يسمى خليل ابن شاهين الظاهري اشتهر بتأليفين احدهما في عالم اليقظة والآخر في عالم المنام فلما الاول فهو كتاب زبدة كشف الممالك في بيان الطرق والممالك ثم اختصره وسماه زبدة كشف الممالك وهو كتاب مفيد في وصف بلادنا واعمالها ودواوينها ووظائفها ونظاماتها وغير ذلك من محاسن هذه المملكة مع سرد ابيات مما نظمها بعض ملوكها وسلاطينها الى غير ذلك من النوادر والفوائد ولا حاجة لي بان اقول لكم انه لا يوجد من هذا الاثر النفيس ولا نسخة واحدة مخطوطة بذياب مصر كلها وهي وطن مؤلفه بل هي موضوعه ومدار مباحثه .

اما الكتاب الثاني فقد سماه « الاشارات في علم العبارات » والعبارة هي تعبير الرويا وتفسير الاحلام واسم العلم بالفرنسوية مأخوذ عن اليونانية

قال صاحب كشف الظنون : « كانت العرب في صدر الاسلام لاتعتني بشيء من العلوم الا بلغتها ومعرفة احكام شريعتها وبصناعة الطب فانها كانت موجودة عند افراد منهم لحاجة الناس طرأ اليها . وذلك منهم صوناً لقواعد الاسلام وعقائد اهله عن تطرق الخلل من علوم الاوائل قبل الرسوخ والاحكام » واقول ان الشارع هو الذي دعاهم الى تقييد العلم على اطلاقه فقد جاء في الحديث الشريف :

العلم صيد والكتابة قيد . قيدوا رحمكم الله علومكم بالكتابة
اخذ الشاعر قول الشارع فصاغه في بيت سائر ونظم بارع

العلم صيد والكتابة قيده قيد صيودك بالحبال الواثقة
ثم مدحوا الكتب كما مدحها فرعون مصر وقياصرة الروم من قبلهم فقال العتابي
وهو من اجلاء عصر الامين والمأمون

لنا ندامة لانمل حديثهم	امينون مأمونون غيباً ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علم ماضى	ورأياً وتأديباً وامراً مسددا
بلا علة تخشى ولا خوف رية	ولا نتقي منهم بنائاً ولا بدا
فان قلت هم احياء لست بكاذب	وان قلت هم موتى فليست مفندا

ومدحها ابن طباطبا العلوي

لله اخوان افادوا مفخرا	فيوصلهم ووفائهم انكثرا
هم ناطقون بغير السمة ترعى	هم فاحصون عن السرائر تضرى
ان ابغ من عرب ومن عجم معاً	علماً مضى فيه الدفاتر تخبر
حتى كأني شاهد لزمانها	ولقد مضت من دون ذلك اعصر
خطباء ان ابغ الخطابة يرتقوا	كفي كفي للدفاتر مثبر
كم قد بلوت بها الرجال وانما	عقل الفتي بكتاب علم يسبر
كم قد هزمت بها جليسا مبرما	لايستطيع له الهزيمة عسكر

وهو ينظر بقوله الاخير الى جواب جالينوس فقد قيل له : لم كان الرجل الثقيل اثقل من الحمل الثقيل فقال لان ثقله نلّى القلب دون الجوارح ، والحمل الثقيل يستعين القلب بالجوارح عليه

وفي ذلك المعنى الذي اشار اليه ابن طباطبا وهو في مصر قول لموتسكيو (ابن

خالدون فرنسا) وهو في باريس قال ما ترجمته : ما حل بي جيش المعلوم الا بدوته بساعة واحدة من القراءة

ومدح العرب للكتب كثير جداً أكتفي منه بكلمة واحدة منشورة : اهدى بعض الكتاب الى صديق له دفترًا وكتب اليه : هديتي هذه اعزك الله تزكو على الانفاق وتربو على الكد . لا تنسدها العواري ولا تخلقها كثرة الثقليل . وهي انس في الليل والنهار والسفر والحضر وتصلح للدنيا والآخرة . وتونس في الخلوة وتمتع في الوحدة . مسامر مطواع ونديم صديق .

وقال آخر : الكتب إساتين العلماء

ولكن كل هذه الاقوال وما شابهها مما نرويه عن المتقدمين والمتأخرين لاتعادل الكلمتين اللتين قالها فرعون مصر عن الكتب شفاة الارواح

ولقد قام رجل من مشاهير الانكليز في اوائل القرن التاسع عشر وهو بلور ليثون فاشار بمطالعة الكتب لازالة انواع الامراض قال ما خلاصته : لقد اختلف في ضميري ان انظم دور الكتب على نسق جديد مفيد فبدلاً من ان يكون مكتوباً على الخزائن والدواليب والرفوف هذه الكلمات . لغة . علوم طبيعية . فن القريض ونحو ذلك اشير باستبدال هذه الكلمات باسماء الامراض التي تنتاب الجسم والروح مما يمكن مداواته بالاولفات الموجودة فيها من داء النقطة الى اخف التلذات فهذا النوع الاخير من الاستقام يصلح له قراءة الكتب الهزلية مع منقوع الشعير في قليل من اللبن الحليب فاذا غشي النفس من المعلوم التي يمكن ازالتهما مثل عدم تحقق الاماني او معاكسة الاخوان او معاندة الزمان في هذه الحال يحسن بالمصاب ان يتلو تراجم الاعيان والافراد فيتسلى بما اصابهم من البلايا ويحول مرضه باذن الله . فاذا ما طم الهم وعم الغم قال روايات النجع دواء لهذا السقم . ولكن اذا حلت بالانسان مصيبة فادحة وجب عليه ان يشترق كل عقله ولبه وقلبه في عمل من الاعمال العظيمة التي تجعله ينسى نفسه وما حل به من الازراء

واستشهد المستنبط لهذا الطب الجديد الغريب بما حل بشاعر الالماني (جيته) فانه حينما مات ولده تفرغ لدراسة علم جديد وقيل انه اكمل فصول بعض رواياته البديعة فجاءت في نهاية البلاغة والاعجاز

فانظروا الآن الى ما صنعه الاسكندر الاكبر حينما هزم دارا ملك الفرس فانه ظفر في جملة الثنائيم الملوكة بصندوق يدعى الصنعة فقال للمقربين اليه : لاي شيء يصلح هذا الصندوق ؟ فاجاب كل منهم بما رآه . ولكن سيد الفاتحين لم يعجبه قولهم وقال انما يابق هذا الصندوق لحفظ الياذة اوميروس

وفي ايام الاسلام ظفر الحجاج بن يوسف عامل بني مروان بصندوق عجيب من ذخائر الفرس فامر بفتحها فوجدوا صندوقاً آخر ففتشوا فوجدوا صندوقاً آخر ثم رابعاً وخامساً وسادساً وسابعاً فقال الامير : لعل فيه حماقة من حماقات الفرس . ففتشوا واذا فيه بطاقة مكتوب عليها هذه العبارة : من مشط لحيته في كل يوم طالت : ونحن لم نخرج عن الموضوع لان هذه الوصية كانت مكتوبة على قطعة من الحرير وانني اقلب الطرف يميناً وشمالاً فلا اجد من اوصيه بها ليخبرنا بصحتها بعد العمل بها

ولا يخفى عليكم ان عرب الشرق هم الذين احبوا علوم العرب ونشروها وها هم يحجم الغرب يعملون على هذه السنة الآن في المانيا وفرنسا وانكلترا وايطاليا وهولاندا واسبانيا والروسيا وسائر بلاد اوربا واميركا ولا امل لي الا ان ارى اهل مصر يشاركونهم فهم احق بتراث اجدادهم ولا يكون ذلك ولن يكون الا بالعناية بالكتب

هل انا كم حديث فرنسا وناهيكم بها في العلم والحضارة والعرفان ؟

انها مدينة لمصر الاسلامية بدنيين عظيمين في انشاء دور الكتب العمومية اولها يرجع الى ايام الحروب الصليبية . فان الملك القديس لويس وهو التاسع بهذا الاسم شن الغارة على مصر في اول دولة المالك البحرية ثم عاد ادراجه مهزوماً ولكنه رجع ظافراً بفكرة حميدة ومأثرة جميلة . وهي انه اقتبس عن اجدادنا فكرة جمع الكتب بعضها مع بعض في دار واحدة وفتحها في وجه الجمهور لينفع بها الخاصة والعامة اترك الكلام لكاتب سيرته وامامه في صلواته فقد قال ما خلاصته :

« ان الملك النقي الورع القديس لويس وصل الى سمعه وهو قبا وراء البحار ان سلطانه من سلاطين الشرقيين يبدل عنايته في البحث عن الكتب المختلفة الانواع وفي استنساخها على نفقته ثم يضعها في دار عمومية ليستفيد من مراجعتها علماء بلاده فانه كان يجعل هذه المجموع تحت تصرف جميع الطالبين . فاراد القديس لويس ان يتشبه بهذا السلطان وعزم على بذل المال بجد عودته الى فرنسا لنسخ الاسفار النافعة

وصحاح الكتب المقدسة التي يتأتى له العثور عليها في الأديار ليتمكن هو ورعاياه
 العاكفون على علوم الأدب من درسها وحرثها للانتفاع بها وإفادة الجار والقريب
 بمعارفهم وقد انجز هذا القصد فامر بأعداد مكان لائق أمين في باريس جمع فيه كثيراً
 من تصنيفات القديس اغسطينوس وامبرواز وجيروم وغريغوار وبقية أئمة المذهب
 الارثوذكسي . وكان يذهب في أوقات الفراغ للقراءة في هذا المكان ويسمح لغيره
 عن طيبة خاطر بمشاركته في مناجاة المؤلفين . وكان يؤثر استنساخ الكتب على
 شراء اصولها لان ذلك في رأيه من شأنه ان يزيد في عدد الكتب المقدسة ويجعلها
 أكثر فائدة . وكان حينئذ يقرأ في تلك الكتب بمحض من خدمه وحشعه الذين
 لا يفهمون اللاتينية يترجم لهم بالفرنسية ما لا يدركونه من العبارات »
 غير انه في آخر عمره اصابه دخل في عقله فبدد شمل تلك المجموعة وامر في
 وصيته بتوزيع الباقي على الأديار

واما الدين الثاني الذي لنا على فرنسا فيرجع الى عهد قريب منا وبيان ذلك ان
 القائد بوناپرت عند هجمته على مصر في فجر القرن الماضي على التاريخ الميلادي نهب
 كثيراً من بقايا الكتب النفيسة التي كان اجدادنا اخفوها او وجدوها بعد الفتح العثماني .
 وكل من ذهب الى باريس او اطلع على فهرس دار الكتب الاهلية فيها يأخذ العجب
 العجاب ان لم تساوره الاشجان والاحزان . فلقد اصبحنا اذا احشينا الى شيء من
 مؤلفات المصريين الخاصة بمصر لا نرى منها شيئاً في بلادنا ولا بد لنا من الرحلة والتغرب
 لتطلبها في بلاد الغرب

ولقد أدرك محمد علي ذلك عند ما اراد ان يجدد العلم في ربوع مصر فارسل نفراً
 من نابغي الازهر الشريف فعادوا وافادوا جدد الله عهدهم . ورافع رايتهم هو المرحوم
 رفاعة بك فطالما انشأ واشدد رصنف والف وترجم وعرب وكلنا عيال عليه وعلى اولاده
 اعلموا ان العرب وللإسلام سرّاً عجيبة في تاريخ الحضارة والعمران . فالعرب اينما
 حلوا اقتشرت لغتهم قليلاً قليلاً ثم سادت رويداً رويداً ثم انتهت امرها بالانفراد
 والاستقلال . كذلك الاسلام اينما اقتشرت رايته استهوى العقول والالباب . ولكن
 الغريب ان العجم هم الذين ينشرون علوم العرب ودين العرب حتى لقد قال الخليفة
 الاموي سليمان بن عبد الملك : « عجبت لهذه الاناجم ملكت مصر فلم تحتج الى العرب
 وملكك العرب فلم تستغن عنهم » وماذا كان يقول هذا الخليفة ودولته أموية عربية

محضة : وماذا كان يقول لعاش حتى رأى عصر العباسيين او لو بعث من قبره هذه الايام ورأى حاجة العرب الى الاعاجم في كل شيء من مرافق الحياة وحاجتهم اليهم حتى ينفخ احياهم آثارهم او التهاقت على اقتناء آثارهم

ماذا كان يقول لو علم بالقصة الآتية ؟

تعلمون ان النصارى الذين خربوا دولة العرب ودكوا معالم الاسلام ومع ذلك فمن اقرب الغرائب واعجب العجائب انهم ما لبثوا ان دانوا بدين العرب المغلوبين وتشبهوا بملوكهم البائدين في احياء العلوم وتوسيع نطاق العمران . سر من اسرار الطبيعة لانزاه الا في شؤون العرب ومعارفهم . فبعد ان هلك هلاكاً وبعد ان مارت الارض بشيور فادخلته في تأمورها جاء احفادها فدخلوا في دين الله افواجاً وارقوا بهم وارتفع بهم مناره في بلاد آسيا الوسطى وفي بلاد الهند الى اوائل الجيل المائى ومن اشهرهم في العلم والعلماء النع بك واسمه محمد بن شاهر روخ اعتنى هذا الرجل بعلم الفلك والف فيه زيجاً باللغة الفارسية ترجمه الى العربية بعض افاضل المصريين والترجمة في خزنيته بمصر وجمع هذا الرجل خزانة من الكتب النفيسة رأيت من بعض بقاياها كتاب الصور السائبة لعبد الرحمن بن عمر بن محمد ابن سهل الصوفي ويسمى بالي الحسين ويعرف بكتاب صور الكواكب وبكتاب الكواكب الثابتة وهو الذي اريد ان احدثكم عنه في هذه الساعة

هذا الكتاب لا ابالغ في فضله ولا اذكر شيئاً من محاسنه وانما اقول لكم ان الروس عرفوا قدره فطبعوه في بلادهم ثم اعزوا الى احد علماء الفرنسيين ترجمه الى اللغة الفرنسية وطبعوا هذه الترجمة ايضاً في بطرسبرج . وهذا الصنيع المزدوج يدلكم على فضل الكتاب وفائدة . واذا بحثتم في ارض مصر من الشلالات الى الاشائيم ومن بادية العرب الى صحراء لوبيا لالتمدون سوى الترجمة الفرنسية وسوى الترجمة الفارسية في دار الكتب الخديوية اما الاصل العربي فقد اُس طاقية الاختفاء وتطير في القضاة وهجر ديارنا وواصل غبرنا فيما وراء البحار ورحل عن ارض اهلين بها الى بلاد ظهرت قيمته بين اهلها بحيث ان العرب الذين صدر الكتاب بلغتهم اذا احتاجوا الآن لمراجعته وجب عليهم ان يتلفنوا احدي هاتين اللغتين الفرنسية او الفارسية او ان يذهبوا الى بطرسبرج وان استبعدوها فالى باريس وهناك يجدون منه خمس نسخ استغفر الله بل ستالان السادسة هي التي سأتكلم عليها . ففي سنة ١٨٩١ عشر يوسف بك خلاط على نسخة ملوكة

من هذا الكتاب مكتوبة على ورق الحرير بالوان مخلفة بالنسخ والثلث وقد بلغ الكتاب فيهما نهاية الاجادة والانتقال وازدانت بصور ملونة باهية زاهية بتدفق فيها الذهب واللازورد على احسن شكل واجمل مثال .

وفوق هذه المزايا التي تجعل للنسخة قيمة يتنافس فيها المتنافسون ويشعشعها العارفون فانها حوت اثراً آخر يزيدها قيمة لدى اهل الدراية . ولكن ابن هم في ديارنا . . . وذلك انها مكتوبة برسم خزانة الملك العالم المؤلف (الغ بك) وعليها اسمه بخطه فصارت بذلك نادرة النوارد وذخيرة الفخائر .

عرضها يوسف بك على دار الكتب الخديوية فقومتها اني لاسمي من ذكر القيمة ولكن اقولها لكم لتعلموا مقدار تفریطنا . قومتها بخمسة عشر جنيهاً مصرياً . وظننت ان ذلك شيء كبير . وكيف لا وهذا المبلغ يساوي الى الف ونصف الف من القروش او خمسة عشر الف مليم : توجه صاحب الجوهرة الى الغازي مختار باشا فزاده الربع . توجه الى الارسالية العلمية الفرنسية بالقاهرة الكائنة الآن بجوار دار ناظر المعارف الحالي فضاغت له الثمن اربع مرات ووعدته فوق هذه المساومة . بوسام المجمع العلمي الفرنسي . فقبض الثمانين جنيهاً ولا ادري اذا كان احرز النشان ولكنه اشترط ان يكتب اسمه . بنائه على تلك النسخة فقبل القوم شرطه وارسل الكتاب الى باريس تكميلاً لنصف الدسنة واصبحت نسخهم ستاً .

روى صاحب كتاب الفهرست ان ابا زكريا يحيى بن عدي النصراني المتوفي ببغداد سنة ٣٦٤ قال انه رأى في تركة ابراهيم بن عبد الله التاتل النصراني كتاب السماع الطبيعى كله وكتاب البرهان لارسطو مشروحين بقلم الاسكندر الافروديسي وعندى قطعة وافرة من (كتاب البرهان) وانهما عرضا عليه بمائة دينار وعشرين ديناراً فغضى يحتال في الدنانير ثم عاد فاصاب القوم قد باعوا الشرحين في جملة كتب على رجل خراساني (اعجمي من الفرس) بثلاثة آلاف دينار وكانت هذه الكتب مما يحمل في الكم

قال القاضي الاكرم الوزير القفطي المصري بهذه المناسبة في كتابه المترجم بترجم الحكماء المطبوع في لبيك من اعمال المانيا مانص :
 « فانظر الى همة الناس في تحصيل العلوم والاجتهاد في حفظها والله لو حضرت هذه

الكتب المشار اليها في زمننا هذا وعرضت على مدعي علمها ما ادوا فيها عشر معشار

ماذكر» وماذا كان يقول لو سمع الحكاية التي رويتها لكم عن كتاب الصوفي . نعم ان الخراساني اشترى الكتب بثلاثين ضعفاً واما الفرنسيون فاشترى كتاب الصوفي باربعة اضعاف لانهم لم يجدوا في مصر من يذاحمهم كما جرى في بغداد

واقول لكم ان يحيى بن عدي النصراني المذكور كان من اكابر المؤلفين والمترجمين ومحققي الفلاسفة وكان من المفرمين بجمع الكتب ونسخها بيده وكان اوحد دهره ومذهبه من مذاهب النصارى اليعقوبية . رآه ابن النديم في سوق الوراقين فعاتبه على كثرة نسخه فقال : « من اي شيء تعجب في هذا الوقت . من صبري ؟ قد نسخت بخطي نسختين من التفسير للطبري وحملتهما الى ملوك الاطراف وقد كتبت من كتب المشككين ما لا يحصى ولعمري بنفسي وانا اكتب في اليوم والليلة مائة ورقة . »

ونحن نعلم ان النويري المصري صاحب كتاب نهاية الارب في فنون الادب كان يكتب في اليوم والليلة ثلاثة كرايس اي ستين ورقة . فلم يبلغ شأن هذا المتقدم مع ان جميع المؤرخين يعجبون بابن وطننا الذي سترون اثره الجامع لكل العلوم والمعارف في السنة المقبلة ان شاء الله

كل هذه الاعمال وهي قطرة من بحر تدلكم على مقدار الغرام بالكتب وانه اذا استولى على العقل فلا يجد المدنف العاشق لذة في شيء آخر . وهذا الزام ليس قاصرا على الشرق او على الغرب بل هو داء مستحكم في نفوس الناس على اختلاف الاوطان والاديان والاجناس

نرجع الى ذكر السرفات في الكتب واروي لكم حادثتين وقعت احدها لرجل من افاضل الاسكندرية وكان للثانية شأن كبير بالجامع الازهر في القاهرة فمن الرجال الذين يحق للاسكندرية ان تفتخر بانها انجبتهم ابو الفتوح نصر بن عبد الرحمن الاسكندري النحوي الجغرافي الف كتاباً فيما اختلف واثلف من اسماء البقاع وقد ضبطه وافنى في تحصيله وتحقيقه عمره فاحسن فيه كل الاحسان فجاء ابو بكر زين الدين محمد بن موسى الهمداني المشهور بالخازمي المتوفى سنة ٥٨٤ فسطا عليه برمه وادعاه واستجمل الرواة فرواه به على ذلك ياقوت الحموي في صدر معجم البلدان بقوله . « ولقد كنت عند وقوفي على كتابه ارفع قدره من علمه وارى ان مرماه يقتصر عن سهمه الى ان كشف الله من خبيثته وتحمض المحض عن زبدته » اقول انه رغمًا عن هذا التنبيه مازال الكتاب مشهوراً باسم السارق فان صاحب كشف الظنون لم يذكر

غيره وسماه كتاب ما اتفق لفظه واختاف مسماه في الاماكن والبلدان المشتبهة في الخط .
وعلى كل حال فالكتاب لم يصل الينا

واما الحادثة الثانية فقد وقعت بالقاهرة في ختام القرن التاسع للهجرة . وذلك ان
الامام شهاب الدين ابا العباس احمد بن محمد القسطلاني المصري المتوفى سنة ٩٢٣ الف
في السيرة النبوية كتابه المهور المتداول بيننا الآن وهو « المواهب اللدنية بالمنح
المحمدية » فما راعه بعد ان فرغ من تبليغه في سنة ٨٩٩ الا وقد رفع جلال الدين
السيوطي دعوى عليه امام شيخ الاسلام زكريا الانصاري . وهاك بعض ماورد في
صحيفة الدعوى « انه يسرق من كتبه ويستمد منها وينسب النقل الى نفسه » طالبه
شيخ الاسلام ببيان ما ادعاه . فقال انه نقل عن البيهقي وله عدة مؤلفات فليذكر انه
نقله عنه . ولكنه رأى ذلك في مؤلفاتي فنقله وكان الواجب عليه ان يقول نقل
السيوطي عنه

ماذا كانت النتيجة ؟ انظروا وانجبوا

صدر الحكم على القسطلاني بالترضية اللازمة للسيوطي وازالة ما في خاطره
كيف كان التنفيذ ؟

مشى القسطلاني من القاهرة الى الروضة (جزيرة المنيل) وكان السيوطي معتزلا
عن الناس بها فوصل الى باب ودقه فقبل له من انت ؟ فقال انا القسطلاني جئت اليك
حائياً لطيب خاطرك . فقال له : قد طاب . ولم يفتح له الباب

فأين اين ذلك الزمان مما نحن فيه الآن ؟ افرايتم لو رفع المجني عليهم قضاياهم من
هذا القبيل على السارقين الذين افادوا القسطلاني قولوا لي بربكم هل كانت تكفيها
الحاكم الشرعية والبطريركية والاهلية والمختطة والقنصلية ولجان النفي الاداري ؟
لعمري ان تجار الاحذية كانوا يفلسون كلهم في يوم واحد لو اقتدى السراق بما
فعله القسطلاني !! ولكن التبجح وانتهاك الحرمات وصلا في زماننا الى درجة لامزيد
عليها خصوصاً وان انتشار الطباعة ساعد على نمو هذا الطبع

وتلك الصناعة قد كان لها اصل عند العرب في مصر والاندلس وان كان الاثر
الناطق بذلك قد ذهب من بلادنا ولكن الافرنج حفظوه لنا اثابهم الله عنا خير الثواب
ووقفنا الى اقتفاء خطواتهم في النافع بدلا من تهاكنا على تقليدهم في كل ضار
اخبرني الاستاذ الفاضل حفي بك ناصف انه رأى خشبة محفوظة بمكتبة وينا

عاصمة النصارى في جملة ما ازدادت به من آثار العرب وثمرات عقولهم وهذه الخشبة منقوشة عليها بالتجويف كتابة عربية مقلوبة على الطريقة المألوفة في اصطناع الاختام وانها كانت مستعملة لطبع الاوامر العسكرية وتوزيعها على الجنود كما هو الشأن في ايامنا هذه في « الغازات العسكرية » وذلك يستفاد من العبارات المنقوشة عليها وهذه الخشبة يرجع عهدها للقواطم وربما نشر صورتها عن قريب بعض علماء المستشرقين فتكون برهاناً على تولد هذا الفن بديار مصر

واما الاندلس فقد ترقى الى ما وراء هذه الخطوة الاولى فقد كان للاندلس في هذا الباب ثلاث خطوات

الاولى انهم قلدوا مصر في عهد القواطم ولكن اثرهم لا يزال باقياً في ديارهم وهما اما اطرفكم بصورة فتوغرافية منه كهدية للعيد السعيد وهي صورة الطابع الذي كان يستعمله اهل الاندلس في مدينة المرية عثروا عليه في اطلالها وخرائبها وهو مصنوع من الخشب والكتابة التي عليه تدل على انه كان مستعملاً في قبسارية المرية ولقطة قبسارية تدل على السوق ولا تزال مستعملة بهذا المعنى في القاهرة وفي كثير من مدن الشرق واصلاً مشق من اسم قبصر كما انه اسم موضوع للدلالة على مدائن كثيرة بآسيا الصغرى منسوبة الى قبصر ولا شك ان هذا الطابع كان مستعملاً بصفة الدفعة (الثقة) التي كانت مستعملة في مصر الى عهد قريب لوضعها على الاقمشة والزنايط في نظير تأدية الرسوم المطلوبة لخزينة الحكومة

كذلك كان ذلك الطابع يوضع على الاقمشة والطرود التي يجب دفع الرسوم عليها قبل دخولها الى السوق اي القبسارية في تلك المدينة مدية المرية كما يستفاد من الكلمات المنكوبة فيه وهي :

واما الخطوة الثانية فهي ان الاشراف على دار الطباعة كانت من خطط الدولة .
بدلكم على ذلك النص العربي الذي تبه اليه العلامة جايانجوس الاسباني وهذا النص وارد في كتاب (الحلل السيرا) لابن الابار الاندلسي المشهور وقد طبع العلامة دوزي الهولاندي قطعة وافرة من هذا الكتاب الثمين في مدينة ليدن من سنة ١٨٤٧ الى ١٨٥١ . وانتم تعلمون ان ابن الابار هو الذي ارسله صاحب الاندلس ليستنجد بصاحب تونس . وهو ذلك الرسول الذي وقف بمحضرة ملك تونس وانشده تلك القصيدة الطنانة الرنانة التي تستفز الجبان وبلين لها قلب الجواد . قال في مطلعها :

ادرك بحيلك خيل الله أندلسا ان السبيل الى منجاتها درسا
 ومحل الشاهد ان ابن الابرار بقول في كتابه المذكور ان عبد الرحمن الناصر الخليفة
 الاكبر (ولى بدر بن احمد الوزارة والحجابة والنيابة والخليل والبرد وكان ينفرد (اي
 بدر) بالولايات فتكتب السجلات في داره ثم يعثها للطابع فتدابع وتخرج اليه فتبعت
 العمال وينفذون على يديه . نعم ان هذا النص سقيم ويحتاج الى تفويم ولا بد من مراجعة
 الاصل ونقويته بنصوص اخرى . وربما كان المراد وضع الطابع عليها . ولكن هذا
 الفرض بعيد لان الطابع على ما تفهم لا يصح وجوده بيد غير الوزير كما هو معروف في
 الدول الاسلامية حتى الى الآن في الباب العالي . ولا يظهر ان ذلك يشير الى اخراج
 نسخ متعددة من مطبعة حجرية لتبليغها الى اهل الولايات ورؤوس الواحات
 اما الخطوة الثالثة النهائية فلما عليها دليل مما اورده لسان الدين ابن الخطيب في كتابه
 المنزه بالاحاطة في اخبار غرناطة قال في ترجمة الشيخ ابي بكر القديسي مانصه :
 والى كتاب الدرة المكنونة في محاسن اسبطوبه . والى تأليف حسنك سيف ترحيل
 الشمس ومتوسطات البحر ومعرفة الاوقات بالانقدام ونظم ارجوزة في شرح ملاسن
 ابن دويدار وارجوزة في شرح كتاب الفصح ورفع الوزير الحكيم كتابا في الخواص
 وصناعة الامدة وآلة طبع الكتاب غريب في معناه)
 هذه العبارة اكتشفها اثنان من علماء الانرنيج تمكنا عنها بشرح طوبل في جرنال
 آسيا سنة ١٨٥٢ فأنتم ترون فضل عجم اوربا في البحث والتفتيش عن مآثر العرب . نعم
 انهما ارادا تصحيح العبارة للعربية من حيث استقامة الكلام وتصورا ان فيها بعض
 الالتباس والابهام . فأخذ احدها يصحح الجملة الاخيرة بما ليس له محل من الاعراب
 فقال (كتاب بافي خواص وصناعة وآلة طبع الكتاب غريبا في معناه) ولا يصح
 انابان نهزا بهم بسبب هذا التصحيح العليل السقيم ومافاته من الاعراض اما الجوهر فهو
 انهما اكتشفا هذا البرهان القاطع على ان هذه الصناعة وجدت في ايام العرب ولو من
 باب النظريات العلمية اذ لم تجد لها لآن اثرا عمليا محسوسا ومن المعلوم ان الامدة
 (جمع مدا) تحتاج لتركيب مخصوص لكي تخرج منها نسخا متعددة فلذلك كان المؤلف
 الاندلسي بين صنعتها وبين طبع الكتاب . ولما كان هذا الاستنباط البديع الغريب
 لم يسبق له مثال بالاندلس رأى صاحب الاحاطة وجوب التنبية على فضل الكتاب
 فقال: غريب في معناه